المحاضرة الأولى:
مدخل إلى الثقافة العربية

أولاً: تعريف الثقافة:

أ- **اللغة**: الثقافة في اللغة العربية من الفعل" ثَقِفَ"؛ أي: الحذق والتمكن، والمثاقفة أي الملاعبة بالسيف، وثقف الرمح أي قومّه وسواه، وتثقيف الشيء يعني تسويته وتهذيبه وصقله، والثَّقافة تعني التسوية والتهذيب والصقل.

ب- **إصطلاحًا**: الثقافة "مصطلح عصري وُضِعَ تعريفٌ له في القرن التاسع عشر الميلادي بصورة محددة، وقد استخدم المصطلح" الثقافة"؛ ليشيرَ إلى" ذلك المركب الكلّي المعقد الذي يشمل المعرفة، والاعتقاد، والفن، والقانون، والتعاليم الأخلاقيَّة، والعادات، وأي عادات أو مقدرات مكتسبة بواسطة الإنسان، كعضو في المجتمع"[1].

ثانيًا: تعريف الثقافة العربية:

يعدّ مصطلح الثقافة العربية من المصطلحات الّتي يشوبها بعض من الغموض واللبس، إذ يرى فريق من الباحثين أنّ هذا المصطلح يرتبط بثقافة الشعوب العربية، أي ثقافة الإنسان العربي عبر عصوره المختلفة، أمّا الفريق الثاني فيرى أنّ هذا المصطلح يرتبط بثقافة الشُّعوب التي اعتنقت الإسلام، وإطلاق مصطلح الثقافة العربية على ثقافة الشُّعوب الإسلامية التي لغتها غير عربية، مثل: باكستان، وإيران، وبنجلادش، وغيرها، وهو إطلاق مجازي، ذلك أنّ اللغة العربية هي لغةُ القرآن الكريم، والقرآن هو الكتاب المقدس للمسلمين، ومن ثمّ كانت الثقافة العربية هي المقابل الضدي للثقافة الغربية الّتي تدين بغير الدين الاسلامي أو لا دين لها؛ أي أن مصطلح الثقافة العربية يدل الدلالة نفسها مع مصطلح الثقافة الاسلامية.

والرأي الفيصل في هذه المسألة يتّفق والرأي الأول، لأنّه الرأي الأصوب من حيث إنّه لا يمكن أن نخرج مفهوم المصطلح عن صورته، فنعطي له دلالة مجازية، وهو ما يخرق القاعدة الاصطلاحية الّتي تقول أن المصطلح يدل على مفهومه دلالة صريحة وواضحة غير متعدّدة.

ثالثا: مكونات الثقافة العربية:

بناء على ما ذكرنا نصل إلى القول بأن الثقافة العربية تتكون من مكونين رئيسيين هما : اللغة العربية والإسلام ومن هنا كان الإصرار على تسميتها بـ "الثقافة العربية الإسلامية ". إن اللغة هي وعاء العلوم جميعاً، وأداة الإفهام والتعبير العلمي، والفني والعادي، ووسيلة التأثير في العقل والشعور نثرها وشعرها وأدواتها الفنية. ومن هنا فإن كلّ من يحارب اللغة العربية يحارب بالنتيجة الثقافة العربية . ولذلك كان من ديدن أعداء هذه الأمة إضعاف الفصحى، وإشاعة العامية، وإعلاء اللغة الأجنبية على اللغة القومية، وإلغاء الحرف العربي في الكتابة، وإحلال الحرف اللاتيني محله.

<u>ثالثا: في تاريخ الثقافة العربية:</u>

تعدّ الثقافة العربية أعظم وأغنى الثقافات الإنسانية، ذلك أنّ أقدم الثقافات في التاريخ الإنساني هي الثقافة العربية و الثقافة اليونانية و الثقافة العبرانية. وأنّ أقدم هذه الثقافات الثلاث هي الثقافة العربية، وهي "حقيقة من حقائق التاريخ الثابت الذي لا يحتاج إلى عناءٍ طويل في إثباته،

[1]- **Grolir Academic Encyclopedia P. 384 Culture.** نقلا عن الموقع

ولكنها على ذلك حقيقة غريبة تقع عند الكثيرين من الأوروبيين والشرقيين، بل عند بعض العرب المحدثين، موقع المفاجأة التي لا تزول بغير المراجعة والبحث المستفيض"[2].

إنّ هذه الحقيقة الثابتة الّتي كان ينبغي- كما يقول العقاد- أن يكون الجهل بها هو المفاجأة المستغربة؛ لأن الإيمان بهذه الحقيقة التاريخية لا يحتاج إلى أكثر من الاطلاع على الأبجدية اليونانية[3]، فالأبجدية اليونانية عربية بحروفها وبمعاني تلك الحروف وأشكالها، منسوبة عندهمَ إلى قدموس الفينيقي، وهو في كتاب مؤرخهم الأكبر «هيرودوت» أول من علمهم الصناعات"[4].

ومع ميلنا إلى أن مصطلح الثقافة العربية مرتبط أساسا بالمجتمع العربي فحسب، إلاّ أننا لا ننكر أنّ الإسلام هو المؤسس الفعلي والحاضن الرئيسي للثقافة العربية، فمن خلاله تبرعمت أغصانها، وفي حضنه مدّت جذوعها وجذورها، نعم لقد تفتقت شجرة الثقافة العربية قبل مجيء الاسلام، وتمثلّت في عددٍ كبيرٍ من الخُطَب والحِكَم والقصائد الشعريّة والأمثال؛ حيث تجلّت عبقريّة اللغة وكانت أهمّ صورة لحياة العرب قديماً ومرآةً تعكس بوضوح أفكارهم ومشاعرهم وعمق خيالهم. لكنّها استطاعت أن تتحول بظهور الدين الاسلامي من ثقافة تضيق أرجاؤها إلى ثقافة عالمية تستنير بها باقي ثقافات الشعوب الأخرى.

لقد تمكّنت الثقافة العربية من أن تتحول في فترة وجيزة من ثقافة متأثرة إلى ثقافة مؤثرة، تلقي بظلالها حتّى على أعتى الثقافات العالمية، فمن خلال استيعاب الثقافة العربية للمعارف والعلوم القديمة بوساطة آلية الترجمة، انطلق العرب فاتحين آفاقا أرحب، مبدعين ومستكشفين، كاشفين عن غزارة عطائهم في مجال الأدب والنقد واللغة والفقه وكافة فنون القول.

وهكذا استطاعت الثقافة العربية بعد مجيئ الاسلام وعلى مدى قرون قليلة لا تتعدى الثمانية؛ ابتداء من القرن 02 هـ(08م) إلى نهاية القرن 09هـ (15م) أن تنتج، بفضل علمائها ومفكريها الأفذاذ، تراثا ضخما في شتى مناحي المعرفة الإنسانية عجزت على حمله كثير من مكتباتها، ويكفي في هذا الشأن أن نذكر مكتبة قرطبة في الأندلس الّتي جمع فيه المستنتصر (350هـ- 366هـ) في عهده نسخا مما ألفّه علماء المسلمين إلى ذلك العهد. وتضم هذه المكتبة- كما يقال- 400000 مجلد[5]. يحدث هذا- كما يقول عزّ الدين اسماعيل- ونحن ما زلنا في منتصف القرن 04 هـ، ولنا أن نتصوّر كم كانت تضمّ من مؤلّفات خزائن مكتبة دار الحكمة في بغداد، ودار العلم في

---

[2] - عبّاس محمود العقاد: الثقافة العربية، مؤسسة هنداوي للثقافة والتعليم- مصر، سنة2012، ص07.

[3] - يقول **العقاد** في هذا الشأن: "تعلَّم اليونان الكتابة وأخذوا رسم الحروف من «قدموس» الفينيقي كما قالوا في تواريخهم ورووا قبل ذلك في أساطيرهم المتواترة؛ مما يدل على قِدَم العهد باعتمادهم في ثقافتهم على المصادر الفينيقية. وأيًّا كان قول المؤرخين والرواة فهذه المسألة - مسألة الأبجدية- من المسائل التي لا حاجة بها إلى التاريخ والرواية؛ لأن أسماء الحروف وأشكالها ومعانيها شاهدة بانتقالها من المصادر العربية، سواء كانت فينيقية أو آرامية أو يمنية من الجنوب. فالأبجدية تُسمَّى عند اليونان بال «ألفابيتا» وتبدأ بالألف والباء والتاء، ثم تتوالى فيها حروف كثيرة بلفظها العربي في العصر الحاضر على وجه التقريب. (...) يقول **مرجليوت** في كتابه عن الصلات بين العرب وبني إسرائيل: "يَرِد على الخاطر سؤال عن أسماء المواقع التي تظهر على خريطة اليونان القديمة كعسكرا: أي المعسكر، وفندس: أي الجبل من الفند وهو الجبل العظيم باللغة العربية، ولاريسا: أي العريش أو الخيمة، إلى أمثال هذه الأسماء التي تشبه أسماء المواقع في الأندلس بعد الفتح الإسلامي، فيبادر إلينا السؤال: ألا تشير هذه الأسماء إلى حضارةٍ عربيةٍ عريقةٍ وصلت إلى اليونان ومعها حروف الأبجدية قبل أن يصل إليها الفينيقيون بحروف تخالفها؟".

[4] - عبّاس محمود العقاد: الثقافة العربية، ص07.

[5] - تعرّض هذا التراث في الأندلس إلى محنة فضيعة بعد سقوط غرناطة (1492م)، فقد أمر الكاردينال فرانسيسو خمينيث دي ثيسينبروس (Francisco Jiménez de Tisneros) (1517م) عرّاف الملكة إيزابيل فاتحة غرناطة بإحراق الكتب المتصلة بالأدب والفكر والدين والّتي قدرها بعضم ب80000 مؤلف. يُنظر: الطاهر أحمد مكي، دراسة في مصادر الأدب، دار المعارف- مصر، سنة 1970، ص95.

مصر فيما بعد، وغيرها من المكتبات العامة والخاصة الّتي لا يمكن حصرها[6]. ومما يستشهد به المؤرخون عن ضخامة ما خلفه علماء العرب من مؤلفات في بغداد وحدها، هو ما يروى عن مياه دجلة الّذي اكتحلت بالسود من كثرة من ما ألقي فها من كتب وصحائف حين استولت عليها أيدي التتار[7].

وقد يكفي ما أشرنا إليه دليلا على ضخامة التراث العربي الّذي خلّفه الأسلاف، والّذي أصبح الزاد المعرفي لكثير من الأمم في هذا الزمان، فمكتبات العالم الكبرى سواء الغربي منه أو الشرقي تعجّ بكتب ومؤلفات علماء العرب، بدءا من المكتبة العامة في مدينة (ألماآتا) بعاصمة كازاخستان في آسيا إلى مكتبة الجامعة الكاثوليكية الإمريكية في واشنطن[8].

رابعا: المستشرقون والثقافة العربية:

لقد اعترف كثير من المستشرقين المنصفين أن الثقافة العربية هي صاحبة الفضل في إرساء الحجر الأساس للحضارة الأوروبية الحديثة؛ حيث أسهمت بكنوزها في الطب والكيمياء والرياضيات والفيزياء في الإسراع بقدوم عصر النهضة وما صحبه من إحياء للعلوم المختلفة، فبينما كانت الحضارة العربية أكثر إشعاعا وبريقا كانت أوربا وبقية أنحاء المعمورة تعيش في ظلام حضاري وجهل، ثم ما لبثت هذه الحضارة أن ألقت بأشعتها على الغرب، فينهل منها معارفها، ويستضيء بنورها. فلم تَخلُ أوروبا من مؤرخين أبصروا ما العرب من فضل على الحضارة الإنسانية جمعاء، وعلى الحضارة الغربية على وجه التحديد؛ فألفوا كتباً ودراسات منصفة تشيد بفضل المسلمين الذي لا يمكن إنكاره، فقد نذكر نفرًا منهم درسوا هذه الحضارة دراسة وافية وأبدوا إعجابهم بها.

فمثلاً يقول" توماس أرنولد" :"كانت العلوم الإسلامية وهي في أوج عظمتها تضيء كما يضيء القمر فتُبدد غياهب الظلام الذي كان يلف أوربا في القرون الوسطى."

ويقول" جورج سارتون "في كتابه" مقدمة في تاريخ العلم" :"إنّ الجانب الأكبر من مهام الفكر الإنساني اضطلع به المسلمون؛ فـ"المسعودي "أعظم الجغرافيين، و"الطبري "أعظم المؤرخين."

كذلك يُبدي" تومبسون "إعجابه بالعلوم الإسلامية فيقول: "إن انتعاش العلم في العالم الغربي نشأ بسبب تأثر شعوب غربيِّ أوربا بالمعرفة العلمية العربية، وبسبب الترجمة السريعة لمؤلفات المسلمين في حقل العلوم ونقلها من العربية إلى اللاتينية لغة التعليم الدولية آنذاك".

كما يقول **جورج سارتون :** "المسلمون عباقرة الشرق، لهم مأثرة عظمى على الإنسانية، تتمثل في أنهم تولّوا كتابة أعظم الدراسات قيمة، وأكثرها أصالة وعمقاً، مستخدمين اللغة العربية التي كانت بلا مراء لغة العلم للجنس البشري... لقد بلغ المسلمون ما يجوز تسميته بـ(معجزة العلم العربي)".

---

[6] - عزّ الدين اسماعيل، المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، ص06. ويمكن أن نشير في هذا الشأن إلى المكتبة العامة الّتي أنشأها الخليفة العزيز بن المعزّ لدين الله الفاطمي (ت386هـ/996م) في قصره، والّتي تضم من الكتب 1600000 مجلد، ويرتفع بالعدد راوية أبي شامة في كتابه الروضتين إلى المليونين. ينظر: أحمد طاهر مكيّ: دراسة في مصادر الأدب، ص60.

[7] - محمد عجاج الخطيب: لمحات في الكتبة والبحث والمصادر، بيروت/ دمشق، سنة 1971م، ص31.

[8] - عز الدين اسماعيل، المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، ص07.